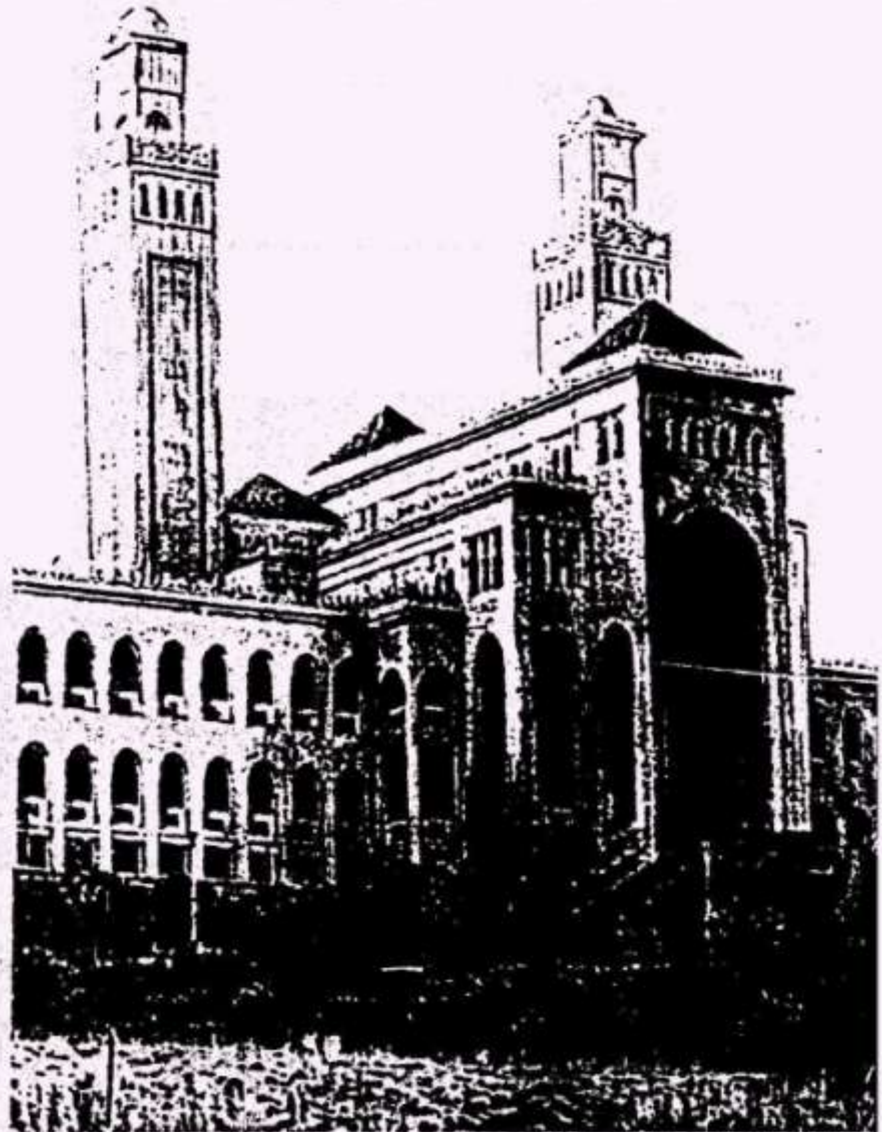
مجلة العلوم الإسلامية

الموافقات



البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد ابن باديس

مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية
تصدر دوريا عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين - مولود قاسم نايت بلقاسم - بالجزائر

العدد السادس، السنة السادسة، 1418هـ (1997-1998م)

مجلة العلوم الإسلامية

الموافقات

مجلة علمية أكاديمية محكّمة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

تصدر دوريا عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين -مولود قاسم نايت بلقاسم- بالجزائر

صدر العدد الأول منها في: ذي الحجة 1412هـ - جوان 1992م

محتويات العدد

البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس

أ. مسعود فلوسي

أستاذ بالمعهد الوطني العالي للعلوم الإسلامية، باتنة - الجزائر

تحظى معرفة مقاصد الشريعة على أهمية بالغة، فهي ضرورية لكل من له صلة بهذه الشريعة الخالدة وأحكامها، خاصة إذا كان مهتما بانتشار هذه الشريعة، ومتمنيا سيادتها على جميع المرافق والمناشط في الحياة الإنسانية، وعاملا في حقل الدعوة إليها بغية اصطباغ حياة الناس بها وعيشهم في ظلالها حتى ينالوا ما تعدهم به من خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

إن الدعوة إلى الله عزّ وجل، أمانة ثقيلة في يد من تحمل عناءها، وهذه الأمانة تقتضي، إلى جانب الإخلاص والصدق الواجب توفرهما في شخص الداعية، حسن الفهم لأحكام هذه الدعوة، وحسن اختيار الأساليب والطرق الكفيلة بإيصالها سليمة إلى غاياتها، دون الوقوع في أخطاء قد تعود على الداعي وعلى الدعوة بنقيض ما أريد منها.

وحتى يتسنى للداعية حماية الدعوة مما يضرّ بها والتمكين لها في واقع حياة الناس، فينبغي له أن يتزود بأهم وسيلة إلى ذلك، إلى جانب الصدق والإخلاص، ألا وهي مراعاة مقاصد الشارع وهي جلب المصالح ودرء المفاسد.

فالداعية ينبغي عليه أن يضع نصب عينيه دائما (مصلحة الدعوة)، وإحساسه الصادق بهذه المصلحة هو الذي سيجعله يهتدي إلى:

- ضرورة معرفة ما يدعو إليه والوقوف على أسراره، ليحببه إلى الناس ويقنعهم به.

- وإلى ضرورة معرفة من يدعوهم ويسعى لتغيير نفوسهم وأوضاعهم.

والناظر إلى سيرة رسول الله ﷺ، سيجدها متطابقة مع مبدأ مراعاة مصلحة الدعوة انطباقا تاما، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يحس إحساسا صادقا وعميقا بمصلحة الدعوة إلى الله التي تدرج معها بعناية فائقة، معطيا كل مرحلة ما

كانت تتطلبه من المواقف. فلم يستعجلها، كما لم يتأخر عن نصرتها بعد تمكنها.

فعلى سبيل المثال:

الذي لا شك فيه أن الهدف الأساسي للدعوة الإسلامية هو تحقيق عبودية الناس لله رب العالمين. ولذلك تركز اهتمام الدعوة في الفترة المكية بصفة خاصة على تصحيح العقيدة وإنهاء كل ألوان الشرك با لله في الاعتقاد والعمل. لكن الشيء الذي نلاحظه من الناحية العملية هو عدم إقدام الرسول ﷺ ولا أصحابه على تحطيم ذلك العدد الكبير من الأصنام الذي كان يلوث بيت ا لله ويحيط بها من كل جانب، ولو أراد عليه الصلاة والسلام لأمر أصحابه بتحطيمها، ولو فعل لنفذوا بدون تردد، ولكنه لم يفعل.

«ذلك أن المسألة يومئذ ليست مسألة تحطيم الأصنام، وإنما هي مسألة تحطيم وتكسير أقفال القلوب حتى تفقه الحق، ثم يأتي اليوم الذي تخرّ فيه تلك الأصنام تحت ضربات المؤمنين»[1].

فقد اقتضت (مصلحة الدعوة) الصبر على رؤية هذه المناظر وعدم الإقدام على تكسير تلك الأصنام حتى لا يجن جنون عبّادها فيزدادوا بعدا عن الإسلام، ورسول ا لله ﷺ لا يريد ذلك، فهو الحريص على إنقاذ الناس من الضلال الرهيب الذي يعيشونه، خاصة بعد أن لاحظ أن مجرد تنبيه الجاهلين إلى تفاهة هذه الأصنام قد هيّجهم، فنالوا من ضعفاء الصحابة نيلا عظيما، فكيف لو أقبل أحد في تلك الفترة المبكرة للدعوة على تكسيرها، لا شك أنه سيحدث له ما حدث لإبراهيم عليه السلام عندما ألقوه في النار. أو قريبا من ذلك[2].

فانضباط منهج الدعوة إلى ا لله بتحقيق مقصد الحفاظ على مصلحة الدعوة، شرط ضروري لسلامة الدعوة وتحقيقها لنتائجها. ذلك أنه في كثير من الأحيان ينحرف الدعاة عن مراعاة مصلحة الدعوة، إلى محاولة تحقيق مقاصد عاجلة وقريبة، هي في حقيقتها مصالح شخصية، وهذا أمر خطير جدا لا يؤدي إلى تعطيل الدعوة فحسب، بل يؤدي في أكثر الأحيان إلى تعويض منجزات الدعوة التي تم تحقيقها من قبل.

«والأضرار التي لحقت الدعوة الإسلامية، من جراء أخطاء العاملين أو بعضهم على الأقل، من الضخامة بحيث يستحيل حصرها وإدراك مداها»[3].

لقد كانت الحركات التغييرية الإسلامية وما تزال وستظل في حاجة ماسّة إلى الإدراك البصير لمقاصد الشارع، وهذا الإدراك هو الذي كفل لكثير منها -على مرّ التاريخ الإسلامي- أن تنجح في الوصول إلى أهدافها وتحقيق نتائج كان لها ما بعدها في التمكين لدين ا لله عز وجل

واستمرارية خلوده على مر الزمان والمكان، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد كان الجهل بهذه المقاصد وتجاهل اعتبارها هو أيضا السبب الخفي وراء السقوط الشنيع الذي لحق بالكثير من الحركات التغييرية التي ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامي.

وبين أيدينا تجربة التغيير التي قادها الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الإسلامية المباركة في الجزائر في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي، وهي تجربة شاهدة على صدق هذا الذي نقوله في ضرورة إحاطة الداعية أو قائد حركة التغيير الإسلامي بفقه المقاصد الشرعية، وأثر ذلك على مسار حركته التغييرية ونتائجها النهائية التي تنجر عنها.

ابن باديس العالم العامل: لم يكن ابن باديس مجرد مصلح اجتماعي ظهر في مسرح التاريخ الجزائري، خلال النصف الأول من القرن العشرين، ثم اختفى بعد ذلك كما ظهر، دون أن يترك وراءه أثرا، أو يخلد لنفسه وحركته في التاريخ ذكرا.

إن الأمر على العكس من ذلك تماما. فابن باديس رحمه الله يشكل منارة شامخة في التاريخ الجزائري، تستلهم الأجيال المتلاحقة فكره وتقتفي آثاره وتنادي بما نادى به. وتعتبره رمزا لا يدانيه رمز آخر في تاريخ الجزائر الحديث، وذلك بما ألهمه للأجيال من روح التحرر وبه من خصال العلم والتقوى والورع.

إن السر في ذلك إنما يكمن في أن ابن باديس قد عرف من أين يأتي هذا الشعب، وأدرك بدقة ماذا يريد هذا الشعب، فعمل -باستلهام تاريخ هذا الشعب ومقوماته- على إحياء ما مات من عناصر الحياة في كيانه، وانطمس من معالم الحيوية والقوة في مشاعر ونفوس أبنائه.

لقد آمن ابن باديس «بالعمل قبل القول. وآمن بإسلامه وعروبته الإسلامية، وانطلق منهما على نحو إيجابي ثوري ينتشل شعبا كان قصارى أمل بعض مثقفيه أن يجدوا أنفسهم في مستوى بشري متقارب مع الاستعمار السيد. ولم يكن أحدهم يحلم -مجرد الحلم- بإمكان وجود جزائر إسلامية عربية ذات كيان دولي خاص وذات رسالة في محيط العالم الإسلامي والعالم العربي على حد سواء»[4].

لم يكن ابن باديس مجرد ثائر يعبئ النفوس ويدفع بها لمجابهة الصعاب والعقبات، وإنما كان عالما يدرك بدقة طريق التحرر والانعتاق، وأنه طريق طويل شاق لا يفضي إلى نهايته في لحظة من الزمن أو بقفزة من القفزات.

ولقد كان علم ابن باديس عميقا بأتم معاني العمق، فالرجل كان متمكنا من علوم شتى ومطّلعا على فنون علمية مختلفة، موسوعي الثقافة، جوال الفكر، أخذ من كل علم من العلوم الشرعية بقسط وافر، مكنه من أن يبلغ درجة العالم المجتهد في عدة علوم، ومنها علم الفقه وعلم التفسير وعلم الحديث، كما كانت له نظراته النافذة في السيرة والتاريخ الإسلامي والفقه والأصول وعلم النفس والاجتماع.

وقد جمع ابن باديس إلى ما تمتع به من علم، العمل بهذا العلم، فهو لم يكن كطلاب العلم وأساتذته من أبناء زماننا الذين يطلبون العلم ليصبوه يوم الامتحان على الأوراق أو يصلون به إلى منصب يكسبون من خلاله قوتهم وقوت أولادهم ثم لا يلوون بعد ذلك على شيء، وإنما كان يعمل بعمله ويوظف ما امتلكه من معلومات وأفكار في عمله التغييري الذي مارسه في واقع المجتمع الجزائري.

- لقد كان ابن باديس على اطلاع واسع بعلوم الشريعة الإسلامية خاصة، واطلاعه هذا هو الذي مكنه من أن يؤدي عمله الإصلاحي هذا أداء منضبطا بالمقاصد الشرعية، هادفا إلى تحقيقها والعمل على الحفاظ عليها في واقع حياة المجتمع الجزائري الذي كان قد وصل -خلال العصر الذي ظهر فيه ابن باديس- إلى وضع مزر منحط، بحيث كاد أن يفقد -في ظل هذا الوضع- كل مقوماته وعناصر حياته، بفعل ما كرسه عليه الاستعمار الفرنسي من تجهيل وتضليل.

التصور المقاصدي عند ابن باديس: لم يكن رجل مثل ابن باديس رحمه الله -وهو العالم المسلم العامل- ليغيب عنه إدراك أمهات المقاصد الشرعية، بل حتى مقاصد تفاصيل وجزئيات الأحكام الشرعية، إن مجرد الشك في ذلك يعتبر نوعا من الحط بقدر الرجل وعمق فكره وأصالة رأيه وعلمه.

صحيح أن ابن باديس رحمه الله لم يكتب مؤلفات أو مقالات يتحدث فيها عن مقاصد الشريعة الإسلامية أو يبين أهمية العلم بهذه المقاصد، ولكنه، في مختلف مقالاته التي كتبها في مجلات وجرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي خطبه ودروسه التي كان يلقيها على خاصة تلاميذه وعلى عامة الناس، كان يؤكد على هذه المقاصد، ويعمل على بيان أهميتها والتوجيه إلى ضرورة الحفاظ عليها والعمل على صيانتها من الهدم والضياع.

لقد أدرك ابن باديس -كما أدرك ذلك من قبله من العلماء- أن الشريعة الإسلامية مبنية -في ما شرعته من أحكام- على جلب كل ما

فيه من منفعة للإنسان ودفع كل ما هو مفسدة له أو من شأنه أن يفضي به إلى المفسدة، وفي ذلك يقول رحمه الله:

«صلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس إما مباشرة أو بواسطة، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير العدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح، وما من شيء نهى الله عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو راجع عليها بالفساد، فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع»[5].

هذا المقصد العام يتفرع بعد ذلك إلى كليات مقاصدية ومقاصد جزئية تختفي وراء كل حكم شرعي.

فإذا كانت مقاصد الشريعة، منها كليات وأمهات عامة تتعلق بكل الأحكام الشرعية في عمومها، ومنها مقاصد جزئية تفصيلية تتعلق بجزئيات وآحاد الأحكام الشرعية، فإن فقه هذه المقاصد بنوعيها لم يكن غائبا عن فكر ابن باديس رحمه الله، بل لقد كان له حضوره في تفكيره، وكان له تأثيره في منهجه في التغيير والإصلاح الاجتماعي.

<u>أولا: فقه المقاصد الكلية</u>: نعني بفقه المقاصد الكلية، إدراك أمهات مقاصد الشريعة، وقد حددها العلماء -منذ القديم- بأنها: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال. ويحاول بعض العلماء اليوم نقد حصر الكليات في هذه الخمسة، ويصرون على إضافة مقاصد أخرى إليها، وربما يمكن اعتبار ابن باديس واحدا من هؤلاء، وخاصة في حديثه عن مقصد الحفاظ على الحرية، الذي يعتبره كلية عظيمة من كليات الحياة الإنسانية السوية السليمة.

<u>أ- حفظ الدين</u>: يمثل حفظ الدين في الحياة الإنسانية -عند ابن باديس- أهمية بالغة وهو حين يتحدث عن الدين إنما يعني به الإسلام لا غيره، فهو وحده الدين الصحيح الذي يجب التدين بأحكامه والعمل بتعاليمه. كما قال تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

«الإسلام بمفهومه الصحيح، عقيدة وعبادة، ومنهجا كاملا شاملا للحياة، يغني عن كل المناهج، ولا يغني عنه أي منهج»[6].

ويعتبر ابن باديس أن الإسلام هو منهج الحياة السعيدة، الذي من دون السلوك عليه والعمل بأحكامه لن تجد الإنسانية سعادتها أبدا. فهي

-بسلوكها على غيره- في همّ وفي عناء وفي شقاء.

فـ«الإسلام عقد اجتماعي عام، فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة، لسعادته ورقيه. وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة، على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام، على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام، غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة»[7].

وحتى يرفع اللبس الذي قد يعتري بعض العقول حين تتصور أنها على الإسلام وأنها لذلك ليست في حاجة إلى أن يدعوها إليه، يصر -رحمه الله- أن الإسلام الذي يعنيه ليس هو هذا الذي يتلبس به معظم الجزائريين دون أن يكون له في واقع حياتهم أي أثر. فهذا إسلام وراثي ليس لهم منه إلا العنوان. أما الإسلام الحقيقي المطلوب، فهو الإسلام الذاتي «إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده، وأخلاقه وآدابه، وأحكامه، وأعماله، ويتفقه -حسب طاقته- في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر، وإيمان وعمل. ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية، بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان».

ويبين الإمام -رحمه الله- أهمية هذا الدين في حياة الإنسانية من خلال عرض مبادئه والتي تسعى إلى إقامة مجتمع إنساني تسوده الأخوة الإنسانية العامة وتملأ أرجاءه المحبة والتعاون والوئام:

«لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها، فيقول: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ ويقرر التساوي والأخوة بين جميع تلك الأجناس. ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة، فيقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾. ويقرر التضامن

الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع وأن الإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾. ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات، فيقول: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾. ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق، فيقول: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾. ويحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب، فيقول: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾، ويأمر بالإحسان العام فيقول: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول: ﴿وقولوا للناس حسنا﴾.

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام -وهو الدين الذي فطرنا الله عليه بفضله- علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته»[٨].

فحفظ الدين عند ابن باديس يأتي في المرتبة الأولى، إذ هو رأس الغايات التي يجب على المصلحين والدعاة أن يهدفوا إلى تحقيقها، إذ بتحققها تتحقق سائر الغايات الأخرى وبغيابها لا يجدي توفير المقاصد الأخرى، بل إنها لن تتوفر أبدا.

ب- حفظ النفس: ونعني بالنفس. الكيان الإنساني في جملته، سواء تعلق الأمر بالكيان كله عامة أو تعلق بكل جزء من أجزائه خاصة.

فحفظ النفس مقصد أسمى له هو الآخر أهميته البالغة ومكانته الخاصة ضمن المصالح التي تعمل الشريعة الإلهية على المحافظة عليها. فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد حفظ الدين.

وفي ذلك يقول ابن باديس رحمه الله:

«هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلا قطعيا، وكلية عامة في الدين»[9].

ومن الشرائع التي قررتها الشريعة الإسلامية لحماية النفس الإنسانية من التعدي عليها بالإهدار أو الانتقاص، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا﴾.[سورة الإسراء/33].

يقول ابن باديس في تفسير هذه الآية: «القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر، فله -على الجملة- ضراوة عليه وإلف به، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه. فلذلك شرع الله القصاص بين النفوس»[10].

ومن حفظ النفوس -عند ابن باديس- المحافظة على الصحة، يقول في وصيته للمسلم الجزائري: «حافظ على صحتك، فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، تجنب العفونة فإنها مصدر جراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك، ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف البريء، منك في مثل هذه الحال. نظف بدنك، نظف ثوبك، تبعث الخفة والنشاط في نفسك، وتنبل في عين غيرك، وتجلبه على الاستئناس بمعاشرتك»[11].

ج-3-حفظ العقل: العقل هو جملة القدرات والطاقات التي مكن الله عزّ وجل منها الإنسان، ليستعين بها في إدراك ما يحيط به من موجودات وكائنات، ويكشف عما هو خاف عنه منها، فيوسع من آفاقه بما يعينه على القيام بمهمة الخلافة عن ربه عزّ وجل والقيام بحمل الأمانة التي أناطها به يوم خلقه وأسكنه هذه الأرض ليعمرها ويتحرك عليها.

العقل -إذن- هو الأداة التي يميز بها الإنسان بين النافع والضار، بين الخير والشر، بين الصالح والطالح، فهو ذو أهمية بالغة في الحياة الإنسانية بحيث لا يكاد يستغني عنه إنسان، إذ أن فقده يجعل الإنسان يعيش حياته كالبهيمة لا يدرك ما يصلحه مما يفسده ولا يكاد يميز بين ما هو نفع محض وبين ما هو شر محض.

فبالعقل «يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها، وأدرك نسب بعضها لبعض إيجابا وسلبا، وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط

على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول»[12].

وقد عرف ابن باديس رحمه الله هذه الأهمية التي للعقل، فقال يخاطب المسلم الجزائري، يعظه ويوصيه: «حافظ على عقلك، فهو النور الإلهي الذي منحته لتهتدي به إلى طريق السعادة في حياتك»[13].

ولأن ابن باديس يرى أن الله عز وجل قد أكرم الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات بالعقل الذي هو أعظم نعمة إلهية أنعم بها على الإنسان، فهو يري كذلك أن من الواجب على هذا الإنسان أن يعرف قيمة عقله، ويكرمه بتنزيهه عن الأوهام والأباطيل، وينزه نفسه عن مساوئ الأخلاق، وفي ذلك يقول رحمه الله:

«قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة فعلينا أن نعرف قيمتها وأن نقدرها، وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه، فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها، وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات»[14].

ويرى ابن باديس رحمه الله أن العقول لكي تتحرر من ظلمات الجهل والخرافة، لا بد من صقلها وتغذيتها بالعلم والأدب: «كما تحتاج الأبدان إلى غذاء من المطعوم والمشروب، كذلك تحتاج العقول إلى غذاء من الأدب الراقي والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة بينهم إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس»[15].

هـ- حفظ النسل: حفظ النسل من حفظ الحياة، فاستمرار الحياة الإنسانية على ظهر هذه الأرض مرتبط بالتناسل والتكاثر بين الذكور والإناث من الناس في هذه الحياة، لذلك كان حفظ النسل إحدى أهم الكليات التي جاءت الشريعة الإسلامية بحفظها والعناية بحمايتها.

ولقد أدرك ابن باديس -فيما أدرك من المقاصد الشرعية- أهمية هذه الكلية المقاصدية، فعمل على بيانها والتأكيد على أهميتها، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطئا كبيرا، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾ [سورة الإسراء/32-33].

قال ابن باديس رحمه الله في تفسير الآية الأولى: «هذا الفعل -أي وأد البنات- الذي كان في الجاهلية، وفعل مؤد إلى قطع النسل وخراب العمران، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان، إما بالقتل بعد الولادة،

وإما بإفساد الحمل بعد التخليق، وهو حرام باتفاق، وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعدم الإنزال في الفرج وهو العزل.

والآية كما نهت عن القتل، رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع، وأن يتلقى ما يعطيه الله من نسل، ابن أو بنت بفرح، لنعمة الله وثقة برزق الله، وإيمان بوعده»[16].

أما الآية الثانية، فبين من خلال تفسيرها الوسائل التي أقامها الشارع لحماية النسل من جانب العدم، فقال رحمه الله: «في الزنا إراقة للنطفة، وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع الصلة، ساقط الحق، فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله، ولهذا بعدما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنه سبب لوجودهم غير مشروع... وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعي، وهو ستر العورة ما عدا وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، وبما حرم من تطيب المرأة وقعقعة حليها عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاط النساء بالرجال»[17].

ﻫ- حفظ المال: المال في الدنيا عرض زائل وسند مائل، فهو إلى زوال وإن طالت به الأيام والأحوال، إن لم يتركه هو صاحبه فسيتركه صاحبه لا محالة في يوم من الأيام.

لذلك كان من السفاهة في الرأي والضلالة في الاعتقاد ما يتصوره بعض الناس من أن تحصيل المال هو الطريق إلى الرفاهية والسعادة والتخلص من كل العقبات والمشكلات.

إن ابن باديس يستنكر هذا الاعتقاد ويسفه من يراه: «كل الناس تسعى لتحصيل ما له في هذه الحياة من شهوات ورغبات، لتحصيل الراحة والهناء والسعادة. ولما كانت المنافع الموزعة بين البشر لا تنال في الغالب إلا بطريق التبادل، وكان التبادل مبنيا على التعاوض، وكان العوض المحبوب عند كل أحد والمحصل لكل عوض هو المال، كان المال عند كل إنسان محبوبا لديه بطبعه وخيرا من كل شيء لتحصيله لكل شيء، وكان أصحاب الأموال في نظر العموم بمظاهرهم الخلابة هم أهل الراحة والهناء والسعادة. الغني سعيد والفقير شقي، هذا حكم ضروري عند عامة الناس، يصدرونه بسرعة ويتلقونه بالتسليم، فمقياس الهناء هو الغنى، ومقياس الشقاء هو الفقر.

لا يا صاح! بل إننا كثيرا جدا ما وجدنا من نسميه غنيا لوفرة ماله في عناء وشقاوة، ذلك لأن ثم أشياء غير المال تغني عنه في تحصيل السعادة وتوصل حتما إليه، ولا يغني عنها هو في ذلك ولا يوصل إليها، فهي إذا قطعا خيرا منه. هذه الأشياء هي الصحة والرجاء والأمل والعمل والوقت»[18].

فالتفاضل بين الناس، –في نظر ابن باديس– لا يجوز أن يستند إلى معيار الغنى والفقر، بكثرة المال أو قلته: «وأما المال فلم يكن أبدا سببا في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾، فجعل التفضيل فيه، فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل "بالرزق"، لأن الرزق ليس سببا لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل، لا دنيا ولا آخرة، لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها –على الحق والعدل– بالكفاءات والأخلاق والأعمال»[19].

وظيفة المال في نظر ابن باديس –إذن– ليست هي أن يكون معيارا توزن عنده أقدار الناس، وإنما له وظيفة أخرى، تلك الوظيفة التي حرص الشارع على تحقيقها، وشرع من الأحكام لحفظ المال وحمايته ما هو كفيل بإيجادها وصيانتها.

هذه الوظيفة تتمثل في اتخاذ المال وسيلة إلى التقرب إلى الله عزّ وجل ببذله في مسالك البر والخير، وتوظيفه فيما هو خير للإنسان في الدنيا والآخرة، وتنميته بالوسائل المشروعة، والعمل على الحفاظ عليه بدفع ما من شأنه أن يؤدي إلى إهداره أو تبديده.

هذه الوظيفة يبينها ابن باديس في وصيته للمسلم الجزائري بالمحافظة على ماله، حين قال له: «حافظ على مالك فهو قوام أعمالك. فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيري لبذله. فاحذر بالوعة المضاربات الربوية في معاملاتك ومن مسارب السرف في جميع ملذاتك إذا كانت من المباحات. ودع ما إذا كانت من المحرمات».

ففي هذه الوصية يؤكد ابن باديس على وسائل حماية المال من جانبي الوجود والعدم: فمن جانب الوجود ينبغي السعي لتحصيل المال من وجوه تحصيله المشروعة، وبذله أيضا في وجوه البذل المشروعة، ومن جانب العدم. للحفاظ عليه ينبغي الابتعاد عن المسالك المعوجة التي من شأنها إهدار المال وحرمان صاحبه منه. سواء بالتعامل عن طريق الربا الذي هو باب إلى

الافتقار، أو بالسرف والتبذير فيه حتى ينقضي ولا يجد صاحبه سبيلا إلى استزداده.

و- الحفاظ على الحرية: تمثل الحرية، في مختلف أبعادها، الفكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية، عاملا مقدسا في الحياة الإنسانية، فما قامت الشعوب منذ فجر التاريخ تكافح وتنافح إلا في سبيل الحرية، ومن أجل الاستفادة مما تتيحه من انطلاق من أسر الاستعباد والتسخير والاستذلال.

ولقد أدرك ابن باديس رحمه الله -مبكرا- أهمية الحرية وحاجة النوع الإنساني إليها، فقال يؤكد عناية الشريعة الإسلامية بها وحرصها على تحقيقها في حياة الإنسان: «حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية، المعتدي عليه في شيء من حريته كالمعتدي عليه في شيء من حياته، وكما جعل الله للحياة أسبابها وآفاتها، جعل للحرية أسبابها وآفاتها، ومن سنة الله الماضية أنه لا ينعم بواحدة منهما إلا من تمسك بما لها من أسباب، وتجنب وقاوم ما لها من آفات... وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع، إلا ليعرف بنو آدم كيف يحيون أحرارا، وكيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وكيف يعالجون آفاتها، وكيف ينظمون تلك الحياة وتلك الحرية حتى لا يعدو بعضهم على بعض. وحتى يستثمروا تلك الحياة وتلك الحرية إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المحمود المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، فرسل الله وكتب الله وشرائع الله كلها ضد لمن يقف في طريق بني آدم دون هذه الغاية العظيمة بالتعدي على شيء من حياتهم أو شيء من حريتهم. ولقد كانت هذه الشريعة المحمدية بما سنت من أصول، وما وضعت من نظم، وما فرضت من أحكام، أعظم الشرائع وأكمل الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم...»[20].

وتأكيدا لما ذهب إليه رحمه الله من عناية الشريعة الإسلامية بالحرية واعتبارها مثل الحياة تماما، راح يضرب الأمثلة من أحكام هذه الشريعة، التي تعمل من خلالها على خدمة مبدأ الحرية وترقيته في الواقع الإنساني:

«الحياة حياتان، حياة الروح وحياة البدن، والحرية كذلك، وحياة الروح وحريتها هما أصل حياة البدن وحريته، وشرائع الإسلام منتظمة لذلك، ومما شرعه الله لتحصيل حرية الروح، صوم هذا الشهر المبارك، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، يترك فيه المؤمن طعامه وشرابه وشهوات بدنه، ويقبل على التهليل والتحميد والتسبيح، فيحرر روحه من سلطة الشهوة

وسلطان المادة، ويسمو بها إلى عالم علوي ملكي من الطهر والكمال، ثم يقبل على تلاوة القرآن -بتدبر- فينير قلبه وروحه، ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات، فما يأتي عليه الشهر إلا وقد ذاق طعم الحرية الروحية العقلية، وخرج بحيوية قوية وحرية نيرة»[21].

ثانيا: المقاصد التفصيلية: إدراك ابن باديس للمقاصد الشرعية لم يتوقف عند معرفة كلياتها، بل لقد امتد إلى إدراك تفاصيل مقاصد أحكامها الجزئية، فهو يدرك أن لكل تشريع مقصد يهدف الشارع إلى تحقيقه من ذلك التشريع، سواء كان مما يتعلق بالعبادات أو المعاملات.

فهو يرى -مثلا- في ربط الصلوات بالأوقات «تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته، وبذلك يضبط الإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال، أما إذا ترك أعماله غير مرتبطة بوقت، فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلا بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقلّ سعيه، وكان ما يأتي به من عمل -على قلته وتشويشه- بعيدا عن أي إتقان»[22].

وفي تشريع التزوج ومنع التبتل قصد الشارع إلى «تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة، القائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة، وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة، وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا كله شرا وفسادا»[23].

ثالثا: الترجيح بين المقاصد في حال تعارضها: إن الفقه المقاصدي عند ابن باديس لم يتوقف عند إدراك كليات المقاصد وجزئياتها. وإنما امتد كذلك إلى إدراك رتب المصالح فيما بينها، فإذا حدث التعارض بين مصلحتين، كيف يكون الترجيح لإحداهما على الأخرى؟

في هذا الصدد يقرر ابن باديس أن علينا أن «نجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لا يكون -إن شاء الله- في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا»[24].

أهداف التفسير عند ابن باديس وتوافقها مع المقاصد الشرعية: ولد ابن باديس رحمه الله في سنة 1889م، أي قبل بداية هذا القرن بأكثر من عقد من الزمن وقد تفتح وعيه في بداية

القرن العشرين على واقع مؤسف يعيشه المجتمع الجزائري، واقع أبرز ما يميزه، الاستغلال الفظيع الذي يتعرض له الجزائريون من قبل المعمرين الفرنسيين من جهة، ومختلف أساليب التجهيل التي تمارس على هؤلاء الجزائريين من قبل الإدارة الفرنسية لكي تبقيهم على وضع من الغفلة والذهول التام عن حقوقهم ومصالحهم التي سطت عليها وأرادت أن تحافظ عليها وإلى الأبد.

وفي سبيل ذلك بذلت كل غال ونفيس، وقد بين ابن باديس وهو يخاطب الشعب الجزائري، ما فعله فيه الاستعمار الفرنسي، فقال : «... حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها... وحورب فيكم الإسلام حتى ظُنّ أن قد طمست أمامكم معالمه وانتُزعت منكم عقائده ومكارمه... وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم إلا ما يشرح به لكم، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم... وحوربت فيكم الفضيلة، فسمتم الخسف، وديثم بالصغار، حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتكم العزة والكرامة، فرئمتم الضيم ورضيتم الحيف، وأعطيتم بالمقادة...»[25].

ومعنى ذلك أن الجزائر كانت في وضع يهدّد كيانها بالذوبان والفناء.

وحين قام ابن باديس رحمه الله مبتغيا مواجهة هذا الواقع الذي آل إليه أمر الشعب الجزائري، حدد من أول يوم الأهداف التي ينبغي عليه أن يسعى لتحقيقها ويعمل على توفيرها وصيانتها، وفي ضوء هذه الأهداف حدد -أيضا- الوسائل التي يمكن توظيفها لأجل تحقيقها.

فما هي هذه الأهداف، وما وجه علاقتها بالمقاصد الشرعية التي رأينا فقه ابن باديس لها وتأكيد على أهميتها؟

أ ـ إحياء التدين والمحافظة على الشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائري: أول ما فكر فيه ابن باديس رحمه الله هو البحث عن أي السبل يمكن من خلالها الوصول إلى تحرير هذا الشعب من هذا الذل وهذا الهوان الذي يرزأ تحت أنقاضه، فقاده تفكيره إلى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة مما حاق بها هي إحياء مقوماتها التي حاربها الاستعمار وحاول أن يميتها فيها، وهذه المقومات هي التي أكد عليها ابن باديس في قوله الآنف، وهي الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة.

«لقد كانت نظرة ابن باديس الناقدة النافذة تكشف له عما يكمن في الأمة الجزائرية من عناصر القوة والكمال، مما يؤهلها للحياة العزيزة الكريمة، فوضع منهاجه الإصلاحي العام القائم على الكتاب والسنة، فكان شعاره في دعوته إلى

الحياة: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". فالتغيير عنده إنما هو استجابة طبيعية من الأمة للحياة، متى أحيينا فيها قيم الإسلام ومبادئه السامية، فتغير ما بنفسها، ليغير الله ما بها، فالدين هو الأساس الأول لكل إصلاح وتغيير»[26].

فمن أول خطوة اختار ابن باديس الطريق الموافق لمقتضى مقاصد الشارع، فراعى حماية أم المقاصد الشرعية وأعلى كلياتها، ألا وهو حفظ الدين، قبل أن يفكر في تحقيق أي غاية أخرى، فلم يخض في السياسة لأنه رأى أنها ليست الطريق الأصوب إلى تحقيق ما يبتغي من نتائج، لذلك يقول رحمه الله في تعليل اختياره للمنهج الديني في الإصلاح:

«... إننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير في خط مستقيم. وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له، من خدمة العلم والدين، وفي خدمتها أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة»[27].

فهو قد اختار رحمه الله أن يدعو شعبه إلى أن يعود إلى دينه، إلى إسلامه الذي كرمه الله به. هذا الإسلام الذي لم يكن ابن باديس يرى مستقبلاً آخر للجزائر خارج دائرته، وهو وحده الذي تُبنى عليه شخصية الشعب الجزائري، وهو يشكل مانعا حصينا لهذه الشخصية ضد كل تهديد داخلي أو خارجي[28].

ويحدد ابن باديس بدقة حقيقة الإسلام، فيقول: «إن الإسلام الذي ندين به، هو دين الله الذي أرسل به جميع أنبيائه، وكمل هدايته وعمم الإصلاح البشري به على لسان خاتم رسله، وهو دين جامع لكل ما يحتاج إليه البشر، أفرادا وجماعات، لصلاح حالهم ومآلهم، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال، فيكمل الإنسانية وينظم الاجتماع، ويشيد العمران، ويقيم ميزان العدل وينصر الإحسان».

لذلك يدعو ابن باديس المسلمين الجزائريين إلى فقه دينهم هذا حق الفقه والعمل به حق العمل، لأن ما هو عليه من سلوك لا يتطابق في أكثر الأحيان مع حقيقة الإسلام الصحيح:

«ليعلم إخواننا المسلمون أن الإسلام دين له عقائد وأخلاق وأحكام، وأن على المسلم أن يعرف من ذلك ما لا يكون المسلم مسلما إلا به، وأن عليه أن يقوم بذلك في أهله وبنيه وبناته ومن في رعايته وكفالته. وليعلموا أن من لم يعرف شيئا من ذلك ليس له من الإسلام إلا اسمه، وأنه لا يجني من ثمرات الإسلام ما يكون به عضوا حيا في جسد الإسلام، وأنه لا يرجى منه للمسلمين

أدنى خير، وأنه ينقلب شرًا على الإسلام والمسلمين بعرض قليل يلوح له به»[29].

فالبعد المقاصدي ظاهر كل الظهور فيما اختاره ابن باديس من منهج في الإصلاح والتغيير، ويبدأ البعد المقاصدي في منهج التغيير عند ابن باديس من نظرته إلى الفرد باعتباره أساس الإصلاح والتغيير، وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح دخيلته، بتصحيح عقيدته وتقويم خلقه: «إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا، هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»[30].

«ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك، غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله. وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا. ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى، وليس هذا على العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز».

«لا نجاة لنا من التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن ربّ العالمين، وهذا أمر قريب على من قربه الله عليه، ميسر على من توكل على الله فيه»[31].

وهذه النظرة التي ينظر بها ابن باديس إلى الفرد نابعة من المكانة التي يتبوؤها الفرد في كيان الأمة، من حيث أن أي خلل يطرأ عليه سيؤثر حتمًا في كيان الأمة، ولذلك يعتبر أن «كل واحد من قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته، بما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم، وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه. فإخلال أي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد إلى

الضرر العام، وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن، وهما أساس القوة»[32].

لأجل ذلك عمل ابن باديس على تكوين جيل مسلح بعقيدة إسلامية ووطنية صحيحة، عمادها حرارة الإيمان ووضوح الهدف.

ولقد كان ابن باديس يرى أن المسلمين لن ينهضوا بمقتضيات إيمانهم با لله ورسوله إلا إذا كانت لهم قوة، ولن تكون لهم قوة إلا إذا كانت لهم جماعة منظمة تدبر وتخطط وتنظم وتحدد معالم الطريق الذي ينبغي أن يسيروا فيه لإعادة العزة والكرامة لدينهم وأوطانهم[33].

ب - إحياء اللغة العربية وحفظ مكانتها في المجتمع الجزائري: بمقدار ما كان تمسك ابن باديس رحمه الله وعمله على صبغ حياة الجزائريين بصبغة الإسلام، كان تمسكه ودفاعه عن اللغة العربية، لغة القرآن والإسلام، فهو يعتبر أنه «لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين؛ اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المعزولة».

إن نظرة ابن باديس هذه إلى اللغة وموقفه الحريص على حمايتها والحفاظ عليها، ينطلقان أساسًا من إدراكه لمدى خطورة اللغة كمقوم أساس ضمن مقومات الشخصية، وثابت من ثوابت الأمة التي لا يجوز التسامح فيها بانتهاك حرمتها، وفي ذلك يقول: «تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها، كما تختلف الأفراد، ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته، كالشأن في الأفراد، كالجنسيات القومية هي مجموعة تلك المقومات وتلك المميزات... وهذه المقومات والمميزات هي: اللغة التي يعرف بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه هذه المقومات والمميزات».

انطلاقًا من هذه النظرة النافذة إلى دور اللغة العربية ومكانتها في تاريخ المجتمع الجزائري ومستقبله، وفي سائر مقوماته الحضارية، فقد أفنى الشيخ رحمه الله الشطر الأكبر من حياته، وركز الجزء الأعظم من نشاطه في العمل الجاد لإحياء اللغة العربية في الجزائر ونشرها بين الجزائريين الذين عمل الاستعمار على حرمانهم من تعلمها في مختلف المدارس والمراحل التعليمية.

والواقع أن الشيخ عبد الحميد -في مبادئه وأهدافه- لم يكن يفرق إطلاقًا بين عمله للحفاظ على الإسلام وعمله للحفاظ على اللغة العربية. فهما يمثلان -بالنسبة إليه- وجهين لعملة واحدة، فلا يمكن الفصل بينهما[34]، حتى إنه تعهد في إحدى خطبه قائلا: «أعاهدكم على أن

أقضي باضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات، وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن... هذا عهدي لكم».

وقد طلب من تلاميذه أن يستمروا على دربه ويترسموا خطاه في هذا المجال: «أطلب منكم شيئا واحدًا، وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن».

ج- تحرير الشعب الجزائري واستقلاله عن فرنسا: يعتبر ابن باديس أن «الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا»، وأن الاستعمار الخبيث الذي ناء بكلكله الثقيل على أمم كثيرة هو وضع غير سوي، بل هو وضع شاذ.

لذلك لم يكن عجيبا أن يطمح إلى تحرر الجزائر واستقلالها من ربقة الاستعمار الفرنسي الغاشم، «فقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير، بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي وتتغير في السياسة الاستعمارية وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعا تعتمد عليه فرنسا اعتماد الحرّ على الحرّ».

ولقد عمل ابن باديس على تحقيق هذا الهدف بما أتيح له من وسائل، وعلى حسب درجة الوعي السائد في أوساط الشعب الجزائري في ذلك الحين، فقد كان «يتخذ من دروس التفسير والحديث وسيلة لشرح أفكاره، وآرائه في بعث روح اليقظة والنهضة في نفوس الجزائريين، ورسم معالم الطريق أمام بعث هذه اليقظة والنهضة، وكان دائم الاستخلاص للعبرة من دروسه في التفسير والحديث والحضارة الإسلامية لتنبيه الجزائريين إلى الحالة السيئة التي وصلت إليها أوضاعهم العامة تحت السيطرة الاستعمارية، وضرورة تكاتف جهود جميع الجزائريين لتغييرها، كما كان دائم الانتقاد لتصرفات الحكام الاستعماريين في الجزائر، والدفاع عن حقوق الجزائريين المهضومة التي يحاول هؤلاء الحكام تجاهلها ورفض الاستجابة لها»[35].

د- المحافظة على وحدة الشعب الجزائري: لقد رأى الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، وهو يصبو إلى تحقيق التحرر والاستقلال للجزائر والجزائريين، أن السبيل إلى ذلك إنما تبدأ أولا من المحافظة على الوحدة الوطنية للشعب الجزائري، والتي دأب الاستعمار

الفرنسي على دك المسامير والأوتاد في كيانها، بزرع أسباب انهيارها والترويج لشعارات مشبوهة هدفها بث الفرقة والانقسام بين الجزائريين.

لذلك سعى -رحمه الله- إلى توحيد الشعب الجزائري كله وراء هدف واضح ومحدد على أساس من رابطة الدين والعروبة التي لا يختلف عليه اثنان في الجزائر.

وقد تمكن الإمام أن يوحد صفوف الشعب ويكتل قواه الحيّة من أجل المحافظة على وحدته الوطنية من ناحية، وإفساد أهداف الاستعمار في بذر بذور الخلاق والشقاق بين الجزائريين من ناحية أخرى، وقد حقق هذا الهدف عن طريق التربية الإسلامية التي نشرها في طول الجزائر وعرضها، وهي التربية التي ظلت فرنسا تحاربها باعتبارها تمثل الخطر الأكبر على مستقبلها في الجزائر[36].

وقد وقف ابن باديس سدًا منيعًا أمام أولئك الذين حاولوا بث التفرقة بين الجزائريين عن طريق إثارة النعرات العرقية، فكتب يومًا منددًا بأحد دعاة التفرقة، ومدافعًا عن وحدة الشعب، قائلا:

«إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرًا مسلمًا جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم... فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب، والأماني الخوادع، يا عجبًا لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي، كلا والله بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم».

تلك -إذن- هي الأهداف التي عمل ابن باديس رحمه الله على تحقيقها، وسخر حياته كلها لأجل بلوغها، وهي أهداف تتوافق تمام التوافق مع ما فقهه من مقاصد الشارع وما أدركه من أسرار شريعته السامية التي أرسل بها نبيه الكريم محمد ﷺ لتبليغها ونشرها بين الناس، ليقيموا على أساسها حياتهم، فينالوا -تبعًا لذلك- ما تعدهم به من خير وما تمنيهم من سعادة وهناء في الدنيا والآخرة.

- لكن، ترى ما هي الوسائل التي وظفها ابن باديس لتحقيق هذه الأهداف؟ وما مدى موافقتها هي الأخرى لفقه المقاصد الشرعية؟

وسائل ابن باديس في التغيير ومدى موافقتها للمقاصد: إذا جئنا إلى البحث في الوسائل التي وظفها ابن باديس رحمه الله، لا نجدها تخرج عن تلك الأهداف التي سعى لتحقيقها، والتي رأينا موافقتها للمقاصد الشرعية.

أ ـ مقاومة جهود الاستعمار القضاء على شخصية الشعب الجزائري: إذا كنا قد رأينا أن ابن باديس يعتبر الإسلام هو السبيل الوحيد للشعب الجزائري إلى المحافظة على كيانه، والصمود أمام مكائد أعدائه، فإن الاستعمار الفرنسي كان يدرك أيضا أن السبيل الوحيد إلى القضاء على شخصية هذا الشعب وتذويبه تماما في الشعب الفرنسي إنما يمر عبر هدم مكانة هذا الدين في نفسية هذا الشعب وحمله على ترك القيام بما يتطلبه من شعائر أو يوصي به من أخلاق.

فالاستعمار الفرنسي «جاء إلى الجزائر يحمل السيف والصليب، ذلك للتمكين، وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب، وفرض الجزي وسخر العقول والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا تلك طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات فيجري إلى مداها ويقف تدفع إلى الحيوانية فيلتقم ولا ينتقم، ولكنه كان استعمارا دينيا مسيحيا عاريا وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشريد. كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد، وتفور بالانتقام، ولم يكتف بذلك حتى احتضن اليهودية، وحمى أهلها وأشركهم في السيادة ليؤلبها مع المسيحية على حرب الإسلام، ويجندها في الكتائب المغيرة عليها»[47].

وقد وقف ابن باديس وزملاؤه في جمعية العلماء لهذه السياسة بالمرصاد، بل أعلن صراحة -ودون مواربة- أنه ماض في التصدي لهذه السياسة والعمل على الحد من تأثيرها: «إننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي -بعون الله- في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء... وإننا على يقين من أن العاقبة -وإن طال البلاء- لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيمانا، وشاهدنا عيانا أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما».

ب ـ الوقوف في وجه دعاة الإدماج والتجنيس: على هذا المنهج القائم على الإيمان

العميق بالاستقلال التام للكيان الجزائري بإسلامه ولغته ووطنه، حارب ابن باديس -وبضراوة- فكرة الاندماج التي كان ينادي بها بعض الجزائريين، فقد ظهر من بين الأحزاب السياسية في الجزائر من حاولوا إقناع الجزائريين بمحاولة الحصول على الحقوق الفرنسية للجزائريين عن طريق الإدماج في فرنسا، ويتم ذلك بالتنازل عن المبادئ مع المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الإسلامي... بل لقد تطرف بعضهم فأصبحوا ينادون بالتجنيس الكامل للجزائريين بحيث يصبحون فرنسيين في كل شيء.

لقد جاء إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كرد فعل على سياسة التنصير والفرنسة التي عملت فرنسا على فرضها على الجزائر، كي تسلخها من هويتها وانتمائها، ولذلك بذلت الجمعية -وعلى رأسها ابن باديس- جهدها الأكبر لإحياء اللغة العربية ونشرها على نطاق واسع، ومقاومة نشاط رجال التبشير، ثم العمل بكل وسيلة على إحباط سياسة الاندماج والتجنيس التي كان يدعو إليها أولئك المحسوبون على الجزائريين... وفي هذا الصدد يقرر ابن باديس «أن كل محاولة لحمل الجزائرين على ترك دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم، فهي محاولة فاشلة مقضي عليها بالخيبة...».

كما يؤكد «أن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج».

من هذا المنطلق حارب ابن باديس -ومعه جمعية العلماء- سياسة الاندماج ودعاة التجنيس حربا لا هوادة فيها، وأصدرت الجمعية فتوى بتكفير كل مسلم جزائري يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي من أجل الاندماج أو التجنس بالجنسية الفرنسية... وبذلك لاقت تلك الدعوة الفشل الذريع وانصرف عنها الناس[38].

ج- محاربة رجال الطرق الصوفية: كما حارب ابن باديس رحمه الله الاستعمار الفرنسي ودعاة الاندماج، حارب كذلك رجال الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري، بل لقد بدأ بهم قبل أي عدو آخر.

وقد صور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله نظرته هو وابن باديس لهذه الفئة وسبب مواجهتهما لها، فقال: «كان من نتائج

الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح: من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه ويفسدان عليه دينه ودنياه:

1/ استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار.

2/ استعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أرساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفا من الله بزعمه.

الاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معًا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تسعى بالمال على الثورة. فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون، وكذلك فعلنا»[39].

لذلك -إذن- أعلن ابن باديس الحرب على رجال الطرق الصوفية، فعمل من جهة على فضح دسائسهم وكشف مؤامراتهم وتعاونهم مع الاستعمار.

وعمل من جهة أخرى على تحرير العقل الجزائري من الأوهام التي كبلته وجعلته يؤمن بالخرافات والأساطير ويقصد المشعوذين والطرقيين، وقد قام بذلك بواسطة نشر التربية الإسلامية الصحيحة، ونشر العلم والمعرفة بين عامة المسلمين، ومحاربة الخرافات والجمود وغرس الإيمان بالفكرة الإصلاحية السلفية في نفوس عامة الجزائريين، حتى تصبح عقيدة راسخة في قلوبهم...

ولقد شنّ ابن باديس حملة عنيفة على هؤلاء، ورأى أن المعركة ضدهم مقدمة حتى على المعركة مع الاستعمار، وقد بلغ من عنف هذه الحملة التي قادها ابن باديس على رجال الطرق الصوفية والتي قوضت أركانهم وحررت عقول الجزائريين ومعتقداتهم من الشرك والضلال أن تآمر بعضهم على قتله حتى يستريحوا من حملته الضارية عليهم. وقد كان من لطف الله به وبالشعب الجزائري أن أنقذه من محاولة الاغتيال التي دبروها له ذات ليلة في أحد أزقة مدينة قسنطينة[40].

<u>بعض مظاهر الفكر المقاصدي في منهج التفسير عند ابن باديس</u>: تلك -إذن- هي الجبهات التي كافح ابن باديس من خلالها،

وعمل من خلالها على تحقيق أهدافه، وهي جبهات تمثل صميم العلم الشرعي الإسلامي المبتغي خدمة الدين والحفاظ عليه بالحفاظ على سائر المقومات الأخرى للشعب الجزائري.

وهذه الجبهات كافح ابن باديس عليها باستعمال طرق إجرائية كثيرة، تصب كلها في خانة الوسائل المشروعة الهادفة إلى تحقيق غايات مشروعة فعلى امتداد ما يزيد عن ربع قرن من الزمن من حياة الشيخ التي لا تزيد عن واحد وخمسين عامًا، كان الشيخ رحمه الله يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله في الجامع الأخضر أو سيدي قموش أو سيدي بومعزة أو مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يعلم ويحاضر ويفسر القرآن ويغرس القيم الإسلامية بكل الطرق المستوحاة من منهج القرآن في التربية...

ولم يقف الشيخ عند حدود الدروس والمحاضرات في قسنطينة، بل كان دائم التجوال والانخراط في كل التجمعات التي يستطيع من خلالها أن يغرس القيم التي يؤمن بها... وتحقيقا لأكبر أرضية يمكن أن تصل إليها هذه القيم فقد شجع الشيخ الصحافة العربية والإسلامية التي كانت تجد كل عنت من السياسة الفرنسية وعملائها[41].

وإذا كانت المعركة العسكرية لا تخاض بسلاح واحد، فكذلك المعركة الفكرية، فإنها تتطلب -لضمان النصر فيها- ذكاء حادًا وبصيرة نفاذة، وأساليب علمية متنوعة، وقدرة على ضبط المراحل، وإعداد ما يناسبها من مختلف الوسائل.

لقد حدد ابن باديس هدفه بدقة، واختار منهاجه بعناية بعد أن درس الميدان، وقدر جميع أبعاده، فأدرك أن الأمر ((فصل وما هو بالهزل)). وأن المعركة ستكون شرسة، وأن الخصم لن يتساهل، بعد أن كاد يصل إلى أهدافه، بما وضع من مخططات، وسخر من طاقات لتشويه الدين، وترهيب النفوس، وتفريق السبل، وتشتيت الصفوف، لولا بقية ما ترك الآباء من بأس شديد، واستعصاء على كل دخيل، فبدأ ابن باديس يحيي ما مات أو شوه من مبادئ، ويقوي ما وهن من أسس، لا تكون الأمة إلا بها، ويصحح العقيدة، ويثبت الأفئدة، ويوحد السبل، ويوجه الطاقات وجهة سليمة. وقد استعمل من أجل ذلك كل ضرب من القول، وكل ضرب من الكتابة: مقال، خطبة، فتوى، قصة، نشيد..الخ[42].

لقد حمل ابن باديس رسالة هي من رسالة الأنبياء، وتمثلت في إخراج المجتمع الجزائري العربي المسلم من ظلمات الجهالة والتخلف والاحتلال، إلى نور العلم والحرية والتقدم.

وقد سلك في ذلك مسلكًا يشهد بحكمته ورجاحة عقله وسداد فكرته، منهج كفيل بتحقيق تلك الأهداف، المنهج الذي يقوم على: الحكمة والمرونة والتدرج واستعمال اللباقة وأنجع الأساليب الواجب اتخاذها، والمراحل اللازم اجتيازها.

فالرجل لم يكن يسير سيرا أهوج لا يعتمد على أساس علمي أو منهجي، وإنما كان يحسب لكل خطوة حسابها، لأنه يدرك ثقل الحمل الذي كان يحمله، ولقد اضطرته الظروف في بعض الأحيان إلى أن يمارس نوعا من المهادنة للسلطات الفرنسية ويداريها بإظهار التوقير والاحترام لرجالها، ولكنه كان يفعل ذلك لأنه رأى أنه المرحلة كانت تقتضيه، حتى لا تموت دعوته في مهدها ويقضي على حركته الإصلاحية قبل أن تؤتي أكلها. لكن هذا لا يعني أن الرجل كان يعطي الدنية في دينه، لا بل إنه كان كثيرا ما يثور في وجه بعض الممارسات الاستعمارية ويعلن عليها الغضب والثورة، ولكن دائما بحكمة وروية وتغليب لمصلحة الدعوة.

لقد قرر ابن باديس أن يعمل على النهوض بالذات حتى لا تذوب في الكيان الاستعماري الدخيل، ولم ير ضيرا بعد ذلك في أن تكيف هذه الذات مع التقلبات التي تقتضيها المسيرة وسط الزوابع والأعاصير والعراقيل من جهات كثيرة وبأدوات شتى[43].

دور الفطر المقاصدي في النتائج التي حققها العمل التغييري لابن باديس: تلك هي الرسالة التي حملها ابن باديس، وذلك هو المنهج الذي سار عليه، وهو منهج يتطابق كل التطابق مع منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة وصيانة منجزاتها، والعمل على التقدم بها أكثر فأكثر. فهو إذن منهج مقاصدي هادف يعتمد مبدأ العمل الصائب المقترن بالإخلاص المتوهج. الهادف إلى تحقيق نتائج، لا يهم أن تظهر في وقت ما أو لحظة من اللحظات، وإنما المهم أن تتحقق تلك النتائج.

وقد أكرم الله عزّ وجلّ عبده ابن باديس، فحقق له طرفا من نتائج عمله، رآها في واقع الشعب الجزائري، وهو حي يرزق قبل أن يتوفاه ربه إليه، ولقد عرف ابن باديس هذه النتائج فراح يصفها وهو يخاطب الشعب الجزائري قائلا:

«... حوربت فيكم العروبة حتى ظُن أن قد مات منكم عرقها، ومُسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها، فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها. فتصيب الكلى والمفاصل.

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام، كما جاء به محمد ﷺ، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم حتى ظُن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم. فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخًا، وتشيدون له صرحًا سامقًا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وحوربت فيكم الفضيلة، فسمتم الخسف، وديتم بالصغار حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتكم العزة والكرامة، فرئمتم الضيم، ورضيتم الحيف، وأعطيتم بالقيادة. فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل وتهزهزون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف له حقا لا بد أن يعطاه أو يأخذه»[44].

ولقد أدرك رحمه الله السر من وراء التمكن من تحقيق هذه النتائج، ويتمثل في المنهج الذي سلكه: «وإذا كانت الجمعية بلغت -بتوفيق الله- إلى شيء من غايتها، فذلك لأنها أتت هداية الأمة من بابها، فخاطبتها بلسانها، وقادتها بدينها الذي هو زمام روحها والجزء الأعظم الذي تتكون منه وتحيا به شخصيتها، فعالجتها بالكتاب والسنة وهدي صالح الأمة، حيث يتوجه كل مسلم منشرح الصدر مطمئن النفس. وحيث تنطوي كل المذاهب والفرق، فيقل الخلاف، أو يخف، أو ينعدم، فلو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعية بعلاجها الناجع النافع -بإذن الله- للجميع»[45].

ختامًا، لا يسعنا إلا أن ندعو إلى التملي في المنهج الذي سلكه الإمام رحمه الله في حركته الإصلاحية التي قادها في وسط المجتمع الجزائري والتي آتت أكلها ولله الحمد، بفضل توفيق الله الذي ألهم الإمام وإخوانه العلماء إلى السلوك على ذلك المنهج، منهج النبي ﷺ في التمكين للدعوة والعمل على حمايتها وصيانتها من الأخطار والخطوب، ثم التقدم بها إلى الأمام بعد ذلك.

ففي هذا المنهج الذي سلكه ابن باديس بصائر لأولي الألباب ممن لا يقصدون من وراء أعمالهم سوى مرضاة الله عزّ وجلّ، ولا يسلكون في هذه الأعمال سوى المنهج الذي

يرتضيه الله عزّ وجلّ ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام.

«رحم الله ابن باديس، فقد قضى كلّ حياته المباركة، من أجل الإسلام والجزائر، في جهاد مستمر كالزمان، وثبات لا يتزحزح كالجبل، وإيمان لا يتغير كالحق، ما أحجم عن غايته يوما، ولا عاقه عن أداء واجبه وعد أو وعيد، ولا نال من نفسه الأبية ترغيب أو ترهيب، بل ظلّ يواصل ثورته الإصلاحية الشاملة حتى النفس الأخير من عمره الطافح بجلائل الأعمال وحميد الخصال»[46].



الهوامش

(01) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة–بيروت، ص409.

(02) الطيب برغوث، الواقعية في الدعوة إلى الإسلام، ط1، دار الشهاب، باتنة 1405م، ص27 بتصرف.

(03) الطيب برغوث، معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام، دار الشهاب، باتنة، ج1، ص162.

(04) دكتور عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري، ط1، مكتبة الفلاح–الكويت، 1401هـ، 1981م، ص 213.

(05) تفسير ابن باديس، ص96.

(06) الشيخ عبد الرحمن شيبان، مقدمة مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص17.

(07) الشهاب، ج3، م12.

(08) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية–الجزائر، طبع دار البعث–قسنطينة، ط1، 1406هـ، 1986م، ج4، ص111–112.

(09) تفسير ابن باديس، ص116.

(10) تفسير ابن باديس، ص121.

(11) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية-الجزائر، ج3، ص42، مطبعة البعث-قسنطينة، ط1، 1406هـ، 1985م.

(12) تفسير ابن باديس، ص131.

(13) المصدر نفسه، ص42.

(14) تفسير ابن باديس، ص172.

(15) ابن باديس: جريدة المنتقد، العدد الأول، 2جويلية 1925، نقلا عن: تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، 1984، ص297.

(16) تفسير ابن باديس، ص 118.

(17) تفسير ابن باديس، ص118-119.

(18) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية-الجزائر، مطبعة البعث-قسنطينة، ج5، ص 432، ط1-1412هـ-1991م.

(19) المصدر نفسه، ص 444.

(20) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، ص454.

(21) المصدر نفسه، ص 455.

(22) تفسير ابن باديس. ص177.

(23) المصدر نفسه. ص297.

(24) المصدر نفسه. ص429 - 430.

(25) البصائر، السنة الثانية. العدد 83، رجب 1356هـ، سبتمبر 1937م. بتصرف واختصار.

(26) من تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الثاني من آثار ابن باديس (مجالس التذكير من حديث البشير النذير). منشورات وزارة الشؤون الدينية. ط.1. قسنطينة : دار البعث، 1403هـ، 1983م.

(27) الصِّرط السوي. السنة الأولى. العدد 15. قسنطينة، رمضان 1352هـ، ديسمبر 1933م.

(28) انظر الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر / دكتور تركي رابح. ص 226.

(29) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. ج4. ص 66 - 67.

(30) تفسير ابن باديس. ص 35.

(31) المصدر نفسه. ص134.

(32) المصدر نفسه. ص 239.

(33) انظر تفسير ابن باديس. ص428.

(34) انظر دراستنا المطولة : (ابن باديس هل كان طلاعيًا ؟) في جريدة رسالة الأطلس. العدد 05. الاثنين 19 أفريل 1993م. ص 16 - 17.

(35) الشيخ عبد الحميد بن باديس / دكتور تركي رابح. مرجع سابق ص 253.

(36) انظر الشيخ عبد الحميد بن باديس /دكتور تركي رابح. مرجع سابق. ص 270.

(37) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص55.

(38) انظر دراستنا ـ المذكورة سابقا ـ المنشورة في جريدة (رسالة الأطلس). العدد 05. ص17.

(39) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. عدد 21 نقلاً عن الشيخ عبد الحميد بن باديس للدكتور تركي رابح، مرجع سابق. ص236.

(40) الشيخ عبد الحميد بن باديس / د. تركي رابح. مرجع سابق. ص 274 - 275.

(41) العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري / دكتور عبد الحليم عويس. مرجع سابق. ص221.

(42) من تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الثالث من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. ص 12 - 13.

(43) انظر تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الخامس من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. ص9.

(44) البصائر. السنة الثانية. العدد 83. رجب 1356هـ، سبتمبر 1937م.

(45) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. ج4. ص 198.

(46) من تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الثاني من آثار الإمام ابن باديس (مجالس التذكير من حديث البشير النذير). ص25.

